

حوار مع مكسيم روادنسون*

عن الأيديولوجيا وعلم الاجتماع وحركة التحرير العربي والاشتراك

أجرأه حسان شايللا

هذا الحوار

الأستاذ مكسيم روادنسون باحث اجتماعي متخصص في الدراسات العربية والاسلامية ، وعرفه القراء العرب من خلال العديد من كتبه التي ترجمت خلال السنوات اليسابعة ، والتي كانت لها أصداء متعددة لما تحمله من جهود علمية أثبتت أضواء وتفصيلات ساهمت في تقرير التراث العربي من مناجع البحث الحديثة . وإذا اختلف معه بعض المثقفين العرب حول بعض هذه النتيجيات أو الآراء الذاتية فيما يتعلق بمسيرة الحضارة العربية السابقة والتحديات التي تلقاها النهضة المعاصرة واساليب مواجهتها لهذه التحديات ، فإن كتابات هذا المفكر

ساهمت بصورة عامة وفعالة في محاولات إعادة النظر والتوضيح حول مشكلات اجتماعية وثقافية وسياسية تتعلق بماضي العرب وحاضرهم . ولقد رأى هيئة التحرير أن تكون لها وقفة حوار ونقاش مع الأستاذ روادنسون ، وذلك في سلسلة اللقاءات التي تعقدتها الجلة مع مفكرين اجانب ساصلين في الدراسات العربية ، لما يمكن ان يكشف عنه الحوار من مزيد من الوضوح حول المشكليات الفكرية التي يتبعها الباحث ، والمصادر الفلسفية التي يعتمد عليها ، والمتغيرات التي عاناهما اثناء تحريره مع منهجه من ناحية ، ومع الموضوعات التي يعالجها من جهة أخرى ، والتي تمثل الموقف العربي .

ويمتنا هنا الإشارة الى ان طبيعة كل حوار تفترض الصراحة العلمية بما يمكن ان تبين عنه من آراء ووجهات نظر قد تفيد في جهد الايضاح لوقف المفكر ، ولكن ليس من الضروري ان يكون كل ما يصرح به مقبولاً لدى المخاطر الآخر ، أو انه يمثل موقف الجلة . والمدفوع الاخير هو المزيد من السعي الى التفاهم القائم على اساس من الموضوعية والجدية ، من أجل أن لا تتوقف صلة المثقفين العرب بأمثال هؤلاء المفكرين على المترجمات فحسب ، بل تعمداها الى سير شخصية المفكر واطلاعه بالمقابل على ردود الفعل والاصداء التي تخلفها كتاباته لدى قراءه العرب .

ان مجلة «الفكر العربي» تشكر استجابة الأستاذ روادنسون وسعة صدره آملة من كل ذلك تبادلاً حقيقياً للرأي بين عالمين ما زالا مختلفين على شاطئي البحر المتوسط ، ولا يقرب بينها إلا تفاعل الفكر التربى في ما بينها .

هيئة التحرير

* جميع حقوق هذا الحوار محفوظة لمجلة «الفكر العربي»

من البديهي ان ذلك كان يساعد بعض العاملين في ادارات الاستعمار على تعلم العربية. لكن اغليهم لم يكونوا يكلفون انفسهم عناء تعلم العربية، بل كانوا - بصورة عامة - يسخرون من ذلك سخرية تامة.

ثمة مجال رحب، حتى في المجتمعات الابيديولوجية، لنشوء الموضوعية بصورة دائمة. في هذا المجال كان المستشرون فئات مختلفة. فكان منهم من اهتم بدراسة المقامات فقط، وما شابها من الدراسات ، غير مهم ما يمكن أن تقول اليه فيما بعد. أما الآخرون ، من فرنسيين وألمان وانكليز ، فقد جعلوا من خدمة الوطن واجبا فرضوه على انفسهم. بعضهم كان يتفاني في ذلك دونما حساب ، والبعض الآخر يتفكر وانتقاد. وعندما كانت تطلب منهم المشورة - والسياسة منها أمر نادر جدا - كانوا يقدمونها. ولما كانوا من الذين يفتقرن الى الأفكار النيرة الشاملة ، فإنهم كانوا يعاودون استخدام الأفكار العامة السائدة في عصرهم . ومفادها ان الاستعمار أمر مفيد. وهو مفيد للجميع ، وبصورة خاصة للشعوب المستعمرة.

لم يكن هؤلاء اذن من اصحاب الفكر النير الممتاز. ولم تستحوذ المشكلات والمسائل الحقيقة على اهتمامهم بصورة كافية . والخلاصة ، انهم كانوا يفكرون بمنطق الأفكار السائدة في عصرهم . وأضيف فأقول : انهم عندما كانوا يغضون عمرهم من أجل اصدار قاموس اللغة التركية ، أو لنشر ديوان المتنبي ، فإن ذلك لم يكن ليخدم بصورة مباشرة أغراض الاستعمار ، واذا كان يفعل ، وهو ممكن بالتأكيد ، بصورة غير مباشرة.

اما تصويرهم ، باعتبارهم فرقه او مجلسا بسلطات استثنائية ، وعلى انهم قد أرسلتهم الاستعمار ، وتوصيهم كما يفعل صاحب المقالة ، وتوجيه المفكرين العرب معهم لأنهم يستخدمون مناهج الاستشراق ، فهي أمور في غاية الخطأة. ان هؤلاء هم الذين حصموا المناهج الأفضل ، والأفضل بصورة موضوعية ، لانشاء تاريخ نceği. وهم الذين علموا نقد النصوص . ورغم ما نجده عند ابن خلدون وغيره من نقد منهجي لما يحكيه رواة الحوادث والتاريخ ، فان أحدا لم يدفع

- في حديث سابق جرى بيننا بعد اطلاعك على مقالة «التفكير العربي في مرآة بعض الغربيين : روذنسون وغرونوباروم» للدكتور فرانسا زبال ، والنشرة في العدد الأول من مجلة «التفكير العربي» ، اتيت استعدادك لمناقشة ما جاء فيها من آراء عن الاستشراق ، وعن موقعك منه. وأرى اليوم أن هذا الاستعداد ما زال حيا. لذلك أسمح لي أن أبدأ بسؤالك عن رأيك فيها تفصي هذه المقالة؟

● ان مفهوم الاستشراق كما هو وارد في المقالة خاطئ تماما. فالاستشراق ، كما اراه ، مصطلح ضعيف نشأ عن عملية تعميم لمجموعة من المواضيع ومواد البحث ، وتصنيف متعرض لها أدى الى جمعها ضمن شخص واحد. فهو يدل اذن على الطريقة التي جرى بمقضها استنتاج المصطلح ، ولا يدل على موضوع ذي مضمون واتجاه واحد ومحدد. وفي رأيي انه لا وجود لما يسمى استشراقاً ؛ بل ثمة مستشرون فقط ، أو لنقل تيارات من المستشرقين. والقول بوجود شخص في دراسة الشرق ، لا يختلف عن القول بوجود ضرب من ضروب علم الاتنولوجيا لدراسة العرب والمسلمين وغيرهم ايضا.

وقد جاء في المقالة ، ان التغلغل الاستعماري كان ومازال المهدى من وراء الاستشراق . والأمر كما يبدلي اكثرا تعقيدة من هذا الحكم المتسرع . فالاستشراق لم يكن علما. اذ ان الدراسات الشرقية تكونت من تيارات في غاية الاختلاف والتنوع . واذا بحثنا عن بدايتها ، وجدنا أنها قد نشأت عن اهتمام بعض الباحثين بالاسلام من وجهة نظر المسيحي . و يجب الانتظار - كما هو معروف - حتى القرن التاسع عشر ، حيث جرى تأسيس الاستشراق على يد افراد متخصصين لموضوع دراستهم ، ومهتمين به . لم يكونوا موضوعين بصورة تامة ، لأن ذلك مستحيل . لكنهم حاولوا أن يحققوا في بحثهم ما أمكن من شروط الموضوعية واتهامهم بالتهيد للتغلغل الاستعماري ، فيما قاموا به من دراسات ، ان هو الا تبسيط سخيف وبليد . وهو خاطئ ، بصورة مطلقة . فهل كان سيلفستر دوساسي ، عندما نشر المتأممات في جزءين ضخميين ، وضمّنها كل ما ورد عنها من تعليقات عند العرب ، يخدم بعمله هذا التغلغل الاستعماري في العالم العربي !

وكان أعظمهم - فان الشرق بالنسبة له هو فيينا . فهو لم يغرس في رحلاته نحو الشرق أبعد من فيينا ابداً.

بالتأكيد أنا أريد أن أؤثر فيهم . وكل انسان يريد أن يؤثر في انسان . وما علىَّ من أجل ذلك الا أن أقول ما اقتنع به صحيح . فإذا كان ذلك يؤثر في غيري فأنا سعيد جداً لهذا يقيني أن التجدد والرغبة في التأثير بالآخرين ، لا يبني أحدهما الآخر .

ويقال ايضاً ان اريد أن أهدي العالم الاسلامي الى الشيوعية . وهذه ليست المرة الأولى التي توجه اليَّ مثل هذه التهمة . وأجيب بأن متهميَّ بهذا لم يلاحظوا أمراً هاماً ، فالمقالات الأولى من كتابي «الماركسية والعالم الاسلامي» ، وهي التي تستخدم في الأغلب لتوجيه مثل هذه الاتهامات الى بدعوى أنها دعاية للشيوعية ، كتبها بعد عام (١٩٥٨) . وفاتها ان عام (١٩٥٨) يوافق تاريخ طردي من الحزب الشيوعي الفرنسي .

والاتهامات الموجهة ضدي لا تقف عند هذا الحد ، فقد اتتني ايضاً بعكس ذلك . فعندما كنت مدعاً من دار «الاهرام» بمصر وملة «الطبعة» لالقاء محاضرات ، استشهدت بسولحتسين . قالوا حينئذ انني أحاول أن أبعد المثقفين التقديمين العرب عن صديقهم الوحيد الاتحاد السوفيافي .

والواقع انني لم أحاول هذا ولا ذاك . طبعاً أنا اتمنى للعلم الاسلامي وال المسلمين - ولصلحتهم لا لصلحتي فأنا اقتنع في باريس - أن يفتح المسلمون على أفكار تبدو لي صحيحة . أقصد ، بصورة خاصة بعض الأفكار التي نشرتها الماركسية . واني اعتبرها كذلك لأنني مقتنع بصحتها وليس لأن الماركسية دعت اليها . ولا أقول كل الأفكار التي نشرتها الماركسية الرسمية ، فأنا أخذ موقفاً انتقادياً شديداً منها . لكن ، ثمة افكار ماركسية . يبدو لي بعضها صحيحاً . وبالنتيجة ارى من المناسب أن يقتضي بها العرب اليوم . أما اذا لم يقتضوا فهذا شأنهم .

وبوجه خاص اقول : ان ما لم يدرك بعد بصورة كافية هو

بالمفهوم بن العربي بصورة منظمة ومنهجية نحو التاريخ النصي مثلما فعلت المناهج الأوروبيية عندما أعادت نشر المؤلفات العربية . ولم يحدث بسبب تفوق الأوروبيين على غيرهم ، لكن ، لأن الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية لعصرهم ، سمح لهم ، فيما مضى ، أن يضعوا قدماً في طريق العلم قبل أن يحدث هذا في الثقافات الأخرى .

طبعاً ، لم تمر الأمور بصورة مستقيمة دائماً . بل ان هناك صعوداً وهبوطاً . ويمكن بالطبع توجيه الانتقاد الى الكثير من أفكارهم . وفي أرى شخصياً قصر نظر اكثريتهم ، واقتفارهم للأفكار النيرة ، وتكرارهم دونما نقد لأفكار كانت سائدة في مجتمعاتهم ، الخ ... كل هذا صحيح ، لكن الصحيح ايضاً انهم كانوا ، بقياس ما ، أنوذجاً .

أما الباحثة ، الذين ظلوا متبعين لطريقة السلف مثل العلامة فلان وفلان - واستثنى منهم بعضهم من أخذوا دروساً من الاستشراق الأوروبي كمحمد كرد علي مثلاً - فانهم يقumen احياناً بعمل عظيم عند نشر الصوص . ولو لا انتقال مناهج الاستشراق الى المفكرين العرب منذ بداية النهضة ليقيناً عند حدود ما وصل اليه البحث عند هذا العلامة أو ذاك . وللتوجُّب علينا حينئذ أن نتعلم تاريخ الطيري كما هو ، وأن نأخذنه على علاقته دون نقد أو تمحيص .

كان هذا تقدماً كبيراً أحزره العرب . وهم مدربون به للمستشرقين . وهو أمر يُؤسف له ولا شك لكن الصورة التي جرت فيها الأمور كانت خارجة عن ارادتي .

التأثير على العالم الاسلامي

- المقالة تهمك أيضاً . ففي اذكـر ، بذلك تعلم كـسـافـرـ المستـشـرقـينـ في مجال التأثير على العالم الاسلامي .

• وهذا مزاج كما قلت قبل قليل . فالشاغل الأساسي للمستشرقين كان الدراسة والبحث . وبصورة عامة لم يكونوا مهتمين بالعلم الاسلامي بما فيه الكفاية . فأغلبيتهم - باستثناء المعرّين من الفرسانيين اساتذة اللغة العربية في مدارس الجزائر مثلـاـ - لم تطأ اقدامهم هذا العالم . وكما كان يقول نولـدـكـهـ -

البورجوازية الغربية على الاستشراق الماركسي الأوروبي .

- لا ادري ما هو الموضوع الذي يمكن أن ينطبق عليه ما تسميه استشراقاً ماركسيّاً غريباً؟ على كل حال أقول ان المستشرقين الماركسيين نادرون . وتجدهم موزعين هنا وهناك بدون روابط محددة . فماركسيتهم ذات اتجاه شخصي . أما دراستهم فقد حاولوا اسنادها وتبريرها بأفكار ماركسيّة متعددة . وهم في نهاية الأمر متاثرون بوسطهم كجميع الناس . ولعلهم كانوا مزيجاً بين الماركسيّة والأيديولوجيات الأخرى . وهذا أمر طبيعي . وقد حاولوا - كانوا في اكتثرتهم - أعضاء في الحزب الشيوعي - أن ينشروا الماركسيّة ويطبقوها . ولستبه هنا الى ان الحزب لم يكن ليُكره احداً على اتباع آراء محددة في هذه المسائل . ولم ت تكون لديه اصلاً آراء ايديولوجية رسيبة حول طبيعة الايديولوجيا في العالم العربي ، ونمط الانتاج ، والتاريخ ، الخ . وباعتبار انه لم يكن يعرف كثيراً حول هذه المسائل ، فإنه كان يكتفي بتشجيع الرفاق على المضي في هذه الدراسات . وبحثهم على أن يكونوا ماركسيين اثناء اعدادهم لها . وأذكر هنا ان قيادياً من الحزب راجع دراستي عن ابن سينا ، التي اعدتها بتکلیف من الحزب في حوالي عام (١٩٥٠) ، فأشار علي أن الوقت دراساني في المستقبل ببرامج سوفياتية ؛ فهذا أفضل من الاكتفاء - كما فعلت - بالبرامج التومانية (سبة الى توما الاكروبني) . والمشكلة هي ان المستشرقين السوفيات لم يكتبوا كثيراً حول هذا الموضوع . وقد حاول كلود كاهن C. Cahen بدورة أن يقوم بخطوة في هذا المجال من البحث . اذ حاول دراسة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي . وكان حراً في تفكيره . كما انه بذلك ما يستطيع من جهد بصورة جيدة . وأذكر انه جاء مرة يسألني قبل الحرب العالمية الثانية فيما اذا كنت اعتقد أنه يتوجب عليه باعتباره ماركسيّاً منظماً في الحزب الشيوعي الفرنسي أن يبدأ أطروحته لنيل الدكتوراه عن «أمارة انطاكيّة وسورية الشهابية اثناء الحملات الصليبية» بعرض الظروف الاقتصادية والاجتماعية قبل البدء بالأحداث . قلت : ان على القارئ ان يعرف قبل كل شيء ما الذي حدث . وانه سواء كنا ماركسيين أم لا ، فان علينا أن نبدأ بهذه الطريقة .

انه من اجل فهم بعض افكار الماركسية يجب أن يتم تخطي الأيديولوجية القومية .نعم ، ان الأيديولوجية القومية ضرورية للقيام بفضل ضد عبودية شعب ، لكن كل ايديولوجية من شأنها ايضاً أن تحجب النور عن الفكر ، في الوقت الذي تضيّ فيه أموراً أخرى . والايديولوجيا القومية هي مضللة بوجه خاص لأنها ترجع المشاكل العالمية الى عظمة الأمة وتلخصها على هذا النحو . الأمر الذي ينتهي الى تجميد الفكر في قوله ، فيجعله عاجزاً عن فهم المشكلات ، وتحليل المشكلات المعقّدة الى مسائل بسيطة . ولهذا السبب أنا مع علمانية الحياة ، وعلمانية البنى الاجتماعية للفرد والدولة . فعلمانية الدولة لم تتحقق بعد بصورة عامة في العالم الإسلامي . بل ان ما يجري حتى الآن هو العكس . فالايديولوجية لا تتدخل في الحقيقة الا لتفوّق بوظيفة القناع . أما حياة الأفراد ، كالتنظيم الاجتماعي للأسرة ، فانها ما زالت منظمة ضمن قواعد ملزمة اضفت عليها الأيديولوجية طابع المطلق ، بينما يستلزم التطور الاجتماعي والأيديولوجي الحقيقي تجاوزها .

لقد حاولت ، بصورة عامة ، أن أدعو لفهم علماني يعمل على تصفية الأيديولوجيا بقدر الامكان . وقد قلت بهذا في اتجاه معاكس لغزويناوم . مقابلة وضده . مكيف يصنفي صاحب المقالة معه ؟ أي ان فكري العامه . وهي فكرة ماركسيّة ، وصحتها لا تأتي من كونها ماركسيّة . ترى ان الممارسة الاجتماعية (البراكسيس) هي ذات فعالية تتفوق على غيرها من العوامل . ويتقرّر في الحياة الاجتماعية ، وبصورة خاصة في المقاييس والمعايير التي يتطور بها الدين . وهو ما أردت أن أبيه في كتابي «الاسلام والرأسمالية» . وأعتقد ان ما يبيّنه في هذا الكتاب . مستنداً الى ما اعتبره وقائع كواقعة ان بعض تعاليم القرآن - كموضوع الربا مثلاً - لم تطبق لأن الحياة الاجتماعية كانت تتجه في اتجاه مخالف لها . لم يفهم احياناً بصورة كافية .

- تعرّضت في محاضراتك الاستشراق . التي القتها بدار «الأهرام» في كانون الأول - ديسمبر (١٩٦٩) لتأثير الأيديولوجية الماركسيّة في الانخاد سوفيافي على الاستشراق . لكنك لم تبين أثر الأيديولوجية

ولنسمها (شرقية)، وفدت تحت تأثير الأيديولوجيات الماركسية الرسمية والبورجوازية الغربية.

● اذا شئت، لكن الدراسات الشرقية لم يكن لها وجود على الاطلاق.

- حسناً، لكن المؤسسين الماركسيين والبورجوازية موجودان، وكانتا تناولان توجيه الدراسات في هذين الاتجاهين.

● اذا شئت، ولنذكر ان الايديولوجية البورجوازية لم تقم بتوجيه هذه الدراسات بصورة مباشرة، لكنها أثرت في أفكار الدارسين من حيث انتشارها فقط. فلم يكن هناك مركز دراسات بورجوازي يعلى على الباحثين ما يجب عليهم أن يقوموا به. أما الايديولوجية الماركسية فكانت تمارس مثل هذا التوجيه عن طريق مركز منتظم كثيراً، كان يعلى علينا ما يجب أن نقوم به من دراسات، ووقد المعلومات التي تكونت لديه. أضعف إلى ذلك ان الايديولوجية البورجوازية لم تغير قياناً إلا من حيث انتشارها، كما تقدمين، وقد قلنا تجاهدنا لارضاء الحزب قليلاً دون أن نعمق في الدليل.

- الأمر الذي يسعق التفكير هو ان بعض الاتجاهات الماركسية وفدت تحت تأثير الايديولوجية الكولونيالية الأوروبية وقد استمرت هذه الايديولوجية على شكل تقليد في رؤيتها للشرق. وهذا ما يمكن أن نراه في نصوص ماركس والإنجلز عن الجزاير، مثلاً.

● لا أظن ان استخدام مصطلح الكولونيالية يقع في الموقع المناسب من هذه الدراسات. وأفضل على ذلك استخدام الترعة المركزية الأوروبية Europeo-centrisme. وكانت هذه الترعة واضحة عند ماركس. وكان الماركسيون الأوروبيون في القرن التاسع عشر، أو روبيين، ومتطرفين في أوروبتهم. أما المستشرقون المحترون فكانوا، بصورة عامة أكثر تنبهاً لخصوصية الشرق من أولئك الماركسيين.

- وقد تغير عليهم ان يدركوا أبعاد ثورة عبد القادر الجزائري في جينها

● نعم. لكن لاتجاه الديمقراطي كان موجوداً في فرنسا

- أريد أن أعود إلى الفترة السابقة على مسالمة الشخصية في الدراسات الاجتماعية عامة، وحركات التحرر الوطني خاصة، هذه المسالمة الشخصية التي سارجى الحديث عنها قبلنا. الم تكن الدراسات الماركسية في فرنسا، المتخصصة بالغرب العربي والجزائر خاصة، تصدر عن تقليد ايديولوجي ماركسي احياناً، وبورجوازي عربي احياناً أخرى. وينظر بها الى العرب نظرة دوغماطية مذهبية، تعمّس فيها الترعة الأوروبية الاجتماعية الذاتية (أو المركزية)، ولا تمت بصلة حقيقة الواقع العربي؟

● كان المستشركون - كما قلت قبل قليل - على ندرتهم متتنوعين و مختلفين فيما بينهم. فتفقو الحزب كانوا جاهلين بحقيقة الشرق، باستثناء تجربة بسيطة، كروجيه غارودي ، الذي كتب مقالة عن حضارة الاسلام. وهو يعود الى الموضوع بين وقت وآخر. كما كان يكتب احياناً عن الجزائر باعتباره سجين فيها أثناء الحرب. فقام بجهود اضافية حتى يتسلى له متابعة الأوضاع بصورة مناسبة. لكنه يجهل اللغة العربية ، وليس متخصصاً بدراسة تاريخ العالم الاسلامي.

وإذا كان ثمة مسؤول عن توجيه هذه الدراسات وجهاً ايديولوجيـاً ما ، كما تقول ، فهو الحزب الشيوعي الذي ، وإن كان يمكنني بالتجريح بصورة عامة ، فإنه كان مسيراً لكل حزب من قبل سياسته اليومية. اذكر مثلاً ان الحزب طلب منا ، أنا وأخرين ، أن نبني ، قبل حرب الاستقلال الجزائرية أو اثناءها ، معرضاً عن المغرب العربي. الأمر الذي لم يتمحقق لحسن الحظ. فقد لفت الحزب انتباها إلى أنه يتوجب علينا أن نوضح بصورة جلية جزائرية الجزائريين ، وتونسية التونسيين ، ومغربية المغاربة ، أي انه لم يكن يريد أن يترك لنا المجال للحديث عن المغرب الكبير. وهذه حقيقة. هكذا بدا لنا الأمر جبئنة ، حقيقة. فنحن لم نكن نعرف كيف يمكننا أن نميز في القرن الثاني عشر مثلاً ما كان عليه بصورة خصوصية حال الموحدين الذين كانوا يتقلدون بين أنصاف طرق المغرب .

رغم كل ما تقدم لا اعتقد ان الدراسات الماركسية للمغرب العربي تشكل مدرسة ماركسيـة هامة ومستقلة.

- هذا يعني انه كان ثمة نوع من الدراسات ، لنضعها بين قوسين

خاص على تطورك الفكري . لما هو؟ وهل تستطيع مساعدة الآخرين على
تلمس ذلك .

● عندما كنت في صيدا استاذًا في احدى ثانويات المقصاص كنت شاهدًا ميدانياً على القومية العربية . فأنما من ناحية شخصية أحاول أن أكون عالم اجتماع ، ولدي بقدر أو بأخر حساسية ما أمام كل الظواهر الاجتماعية . وثانية المقاصص كما ذكرها ، كانت مركزًا مشاعًا للقومية العربية . وباعتباري كنت منقسمًا ، اعتبارًا من عام ١٩٤٠ في قلب الحركة القومية العربية ، فإن تأثير هذه الحركة على كان بصورة مؤكد قوية .

وكنت في تلك الفترة في حياني ماركسيًا ملتزمًا . وكما هو معروف ، فإن التقليد الماركسي يحث على الانحياز إلى جانب المضطهدين . وإن لم يكن التطابق بين المبادئ والأفعال دائمًا ، فإن الماركسية مع ذلك تتضمن تقليداً معايداً للاستعمار . كما ونجد هذا التقليد بصورة أقل وضوحاً في الاشتراكية جملة ، والديمقراطية . وقد نشأت على هذه التقاليد منذ وقت مبكر من حياني . وأذكّر جيداً طفولتي ، حين كنت أشارك مع غيري من الصبية والكبار في المهرجانات المعادية للاستعمار ، تلك المهرجانات التي كان ينظمها الحزب الشيوعي الفرنسي لنصرة نضال الشعب الصيني قبل انحراف شان كاي شيك ، أو لنصرة حرب الريف بقيادة عبد الكريم الخطابي . وعندما وصلت إلى صيدا في فترة الشباب كان اهتمامي بكل الظواهر الاجتماعية واضحاً . وقد اهتممت بها باديء ذي بدء في سوريا ولبنان . ومنذ وقت مبكر أدركت ، ومها كانت مواقف الحزب الشيوعي الفرنسي فيما بعد ، أن المطالب السورية واللبنانية خاصة ، والعربية عامة بالاستقلال ، محبة وكان الحزب يوافق على مبدئيته ومشروعه ، ما في هذا شك أبداً ، لكنه كان يرى في تحقيقه الفوري خطراً ، خطر وقوع البلدان العربية تحت تأثير الامبرالية الانكليزية والاميركية . ولما كانت الحركة الشيوعية تتوقع اندلاع الثورة في فرنسا غداً الحرب فقد رأت أنه من الأفضل لسوريا ولبنان البقاء مع فرنسا .

إذن ، حاولت منذ تلك المرحلة ، أن أحدد الموقف

بشكل ما . وقد وجد بينهم من تبني عبد القادر الجزائري . ولا يأس أن أذكر تلك الأغنية الفرنسية الشعبية التي كانت تداعف ، في ذلك الوقت ، عن هذا الرجل الشجاع . والحل الأقصى الذي بلغه الماركسيون في القرن التاسع عشر تجاه موضوع استعمار الجزائر هو تنبئهم للموقف الديمقراطي . ولم يكونوا قادرين على المضي في فهمهم لما يجري في الجزائر أبعد من هذا الحد . فقد حالت التزعّة المركزية الأوروبيّة دون ذلك . ولم تخرج روّيتهم لشعوب المستعمرات عن خطّ أوروبي ذي تزعّة مركزية أوروبية .

وقد ظلت الأمور تجري على هذا النحو تقريباً حتى جيـء بارفوس قبل الحرب العالمية الأولى الذي درس الامبراطورية العثمانية دراسة جديدة . وساعدته على ذلك أنه كان موجوداً داخل حدودها ، فرأى من الواقع ما لم يره غيره . ولا تعدو دراسة بارفوس وأمثاله عن كونها ردود أفعال فردية . أما الخطط العام الماركسيّة حتى الحرب العالمية الأولى ، والأصح أن أقول الاتجاهات الماركسيّة ، لأنني لا أعتقد بوجود ما يسمونه الماركسيّة . فقد كان مركزيًا في تزعّعه الأوروبي . هي حدثت انعطافات في لحظة ما ، ومتاخرة جداً .

- يستطيع المتع لدراساته ونشاطاته منذ الأربعينيات أن يلاحظ فيها ترابطًا بين ثلاثة خطوط موجهة :

أولاً : تطور الماركسية نحو الجاه يرمي إلى القطعة النهاية مع الفلسفة والابدأ بوجهاً ، ويبحث لنفسه عن مكان آخر ، تسميه أنت علم الاجتماع ، وتحده الآخرون بالعلم والسياسة .

ثانياً : تطور حركة التحرر الوطني والتقدمي في العالم ، وما حمله هذا التطور من اضافات على محصلة الفكر الثوري في العالم .

ثالثاً : أنت تجمع بين الخططين المذكورين . فقد حاولت إنشاء دراسات اجتماعية لحركات التحرر الوطني ، اوردت منها فهم الديناميكية الاجتماعية والبنية الاجتماعية ، خارج الابدأ بوجهاً الماركسية الرسمية والبورجوازية الغربية .

وقد يكون تطور حركة التحرر الوطني العربي واتجاهاتها الفكرية المعاصرة التي تحمل الاتجاه الموضوعي محل الفكر الميتافيزيقي ، والقومي محل الغربي ، وكل ما تحمله من خصوصية ، ولا أقول من استثنائية ، تأثير ما

من هذه الأحداث ردود أفعال الحزب الشيوعي الفرنسي على التطورات في أوروبا الشرقية وما صدمني من مواقفه أيضا سياسة ازاء القضايا العربية . فقد اناحت لي هذه السياسة امكان اكتشاف بيروقراطية الحزب ، وما تتوجه هذه البيروقراطية من تشويه للقضايا العربية .

كنت في السابق خجولا ، ومناضلا مهذبا . لكن عندما اهتم ايماني اصبحت جريتا بالتدريج . وأول مناسبة تجرأت فيها على اعلان معارضتي أمام سلطة الحزب ، وهي جسارة عظيمة لم يسبق لي أن مارستها من قبل ، كانت بشأن مواقفه الحزب على تغويض حكومة غني موليه الاشتراكية ومنحها سلطات خاصة في الجزائر . فأخذت الكلمة في اجتماع حزبي عام للحزب . وبلغت من شدة الانفعال حدا اني كتلت ألمع في التعبير عن افكاري .

كانت هذه المناسبة واحدة من الأسباب التي أدت الى ارتياح قناعاتي السابقة . لربما كان أمرا ذا دلاله ، اني تجسّرت لأول مرة في حياتي على قول كلمة المعارضة في هذه المناسبة ، وفي هذا الموضوع

التحديد بين المستشرق وعالم الاجتماع

- اختلف المتبعون لدراساتك في تحديد موقعك من المركبة العامة للتفكير . فاتت في نظر البعض منهم غربى متخصص بدراسة الایديولوجية العربية . وثائق شأن المستشرقين ، تنظر الى العادات والتقاليد والحضارة العربية وكأنها مستحثاثات تاريخية جبرولوجية ، بينما يقرؤون البعض الآخر في سياق مختلف تماما . فاتت تقول بمنع الاتصال الرأسى ، للإشارة الى ان التشكيل الاجتماعي العربي في الفرون الوسطى غير بال tatsächlich والحركة والصراع ، وهي عركات التقدم . على عكس الجمود والسلكونية والتآخر التي وصف بها عدد كبير من المستشرقين الليبراليين والماركسيين الحضارة العربية

أنت تدخل دراستك للحركة العربية الحديثة والمعاصرة ضمن إطار أوسع من إطار الدراسة الاستشراقية ، المتخصصة بالغرب ، والحدودة بالدراسة الانثروپولوجية ، أو الأنثربولوجية ، أو الدينية ، ذات المنحى البنيوي أو غيره . أنت تدرس حركة التحرر الوطني في العالم .

والاجتماعي الذي تحمله المطالب العربية من حركة التحرر والتقدم العالمي والقومي . فوضعيتها في سياقها الماركسي . وبتعبير آخر ، بررت مشروعية هذه المطالب ، بوضعها في سياقها الوطني الخصوصي والماركسي . من هنا ، فإن نفوري من الایديولوجية القومية بصورة عامة توقيف ، ان شئت بمعنى ما . وكما سبق لي ان قلت اكثرا من مرة فإن القومية (أو القومية) مرض ضروري ، لكن يجب عدم اطالته اكثرا مما يجب ايضا . وللتلخيص أقول : ان حركة القومية العربية ، التي وقفت عليها عن كثب ، ساعدتني على التفكير بالمسائل القومية . وإذا كنت لم أسرّع لها نفسى ابدا ، فاني في حدود ما اعتبره صحيحا ، أخذت بها . لم اعطيها مركز الأولوية والتلتفو على غيرها من العوامل . ولم أتحيز لها . وهو ما يعتبرني من أجله القوميون مقصرا .

- تطورت حركة التحرر والتقدم في العالم - رغم تزايد تأكيدها على ضرورة التحالف فيما بين فصائلها - في الجماعات مختلفة لا تستجم مع ما تفترضه الایديولوجية الماركسيّة الرسمية من تغيير أحدادي شامل يوقد بين جميع الخصوصيات الاجتماعية الوطنية . وقد ثبع النوع بين الخصوصيات وهو عام وغير استثنائي معا ، دورا فعالا في تخلص الفكر الثوري من التفاصيل الایديولوججي الذي اتجهت السياسة اليومية والطلولات السوسيولوجية الشعبية لشرح الفكر الاشتراكي . ولم يأت ادراكك لضرورة القطعية مع المفاهيم الرسمية من العدم ، وهو ليس ناتج الفكر المجرد . فالقطيعة التي يجري الحديث عنها اليوم كانت في الفكر الاشتراكي منذ نشوله . وتطور تاريخ الحركة الاشتراكية يؤكدها . لما هي علاقة فصايا الحركة الخدمية والتحررية العربية والعالمية في هذا الحسم برائك وكيف توصلت الى ذلك ؟

● ١١٥ ●
تطور بطيء جدا : يقين مسألة القطعية
بـ مكتومة في نفسى . ما كنت في يوم
ـ الحزب بصورة ميكانيكية بمحنة ،
ـ وانفرد من داخل التنظيم . لكن
ـ والأوروبية وغيرها تلاحظت
ـ أدت الى نظرى الانتقادية

تحصيلي لاجازة الآداب لتعليم اللغة العربية، ودراسي للزمني وأمثاله، واللغات السامية الأخرى، والانتروبولوجيا. وقد اعتبرت نفسى دانغا عالم اجتماع ، بالمعنى الذى يعطيه اوغست كونت لتعريف هذا العلم ، أي من حيث هو علم على بالقول أن يتضى الى نتائج يقبل بها اناس من ذوى اتجاهات فلسفية ودينية مختلفة. وبالقول ايضا ، وباعتبارى ماركسيًّا ايضا ، فاني لا انعامى عن صعوبة بلوغ الموضوعية في هذا الحال. على كل حال ، فإنه يمكن الوصول الى نتائج لا يتعدى اقتناع اناس من ذوى آفاق مختلفة بها.

من اوائل اعمالى المبكرة ، ما بدا لأصدقائى غربيا جدا ، وهو يعود للفترة التي كنت مقىها فيها في بيروت . فقد كنت ارى اساتذى يعملون على دراسة التصوف ، أما أنا فقد تكونت لدى منذ البداية قناعة منهجية مفادها أنه من المخالفة بمكان أن ابدأ بمثل هذا الموضوع . ولا أريد أن اثبت من وراء قوله هذا استخفافي بالتصوف في حد ذاته . كلا . غير أنى بحثت الأمر من وجهة أخرى ، وعلى النحو التالي : لم يمارس كل الناس التصوف ، بينما كلهم يأكلون يوميا . والتنتنة أمر مهم . هذا ما لم اتعلمه من الماركسية فقط ، لكن ايضا من استاذى المعلم مارسيل موس تلميد دوركهايم . ولما كان متعمدا على القيام بتحقيقيات انتروبولوجية في لبنان أثناء الحرب العامة الثانية ، فقد عملت على دراسة المطبخ العربي في القرون الوسطى عوضا عن دراسة التصوف . وهكذا اعطاني هنري لاووست Henri Laoust ، مدير المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية بدمشق خطوطا ، قام المعهد بنسخه في دمشق وحلب ، عن المطبخ في القرن الثاني عشر . وقد اشتغلت عددا من السنوات على المطبخ العربي ، وانجزت عددا من المقالات حول هذا الموضوع .

والسبب وراء هذه السيرة هو أنى لم اكن أعتقد بقدرتي على توليد الأفكار بسرعة . واني أميل الى تأجيل المواضيع الصعبة الى ما بعد . وهكذا قلت ان دراسة المطبخ أمر سهل نسبيا ، وعلى أن ابدأ بدراسات تفصيلية . رويدا رويدا استطع أن انتقل الى التعميم .

واهتمامك بالعرب يدخل في هذا السياق . موضوع اهتمامك هو حركة التحرر الوطنى العربى ، ولا أقول العرب من حيث هم عرب ، ومن حيث هو موضوع انتروبولوجي أو بنوى أو أنسنى ، الخ .. وتدرس بالتألي حركة التحرر الوطنى العربى من حيث هي جزء خاص من حركة عامة .

ومن ناحية أخرى فانت ترفض تقسيم العمل والشخص ، فلا تعمل على موضوع التراث من حيث هو تراث ، والقومية من حيث هي قومية الاخ ... فالمركز الأساسى في بحثك هو مهارات وأهداف حركة التحرر الوطنى العربى ، وما يطرأ على الایديولوجيات من تطور تحت تأثير هذه المهارات . والمركز الأساسى الثانى هو ما يجري في ميدان التيبة الجماهيرية من أجل انجاز الاستقلال وبناء الدولة القومية القادرة على تحقيق التقدم والتحرر . والخلاصة ان الاستشراق نوع خاص جدا من الدراسات الشاذة والبيئة السمعة . أما انت فلست مستشرقا . ان موضوع دراساتك هو الطواهر الاجتماعية عامة . واهتممت بحركة التحرر الوطنى العربى داخل ضمن هذا البحث العام . والايديولوجيا هي موضوع من هذه المواضيع الاجتماعية . أما فيما إذا كانت قد نسربت الایديولوجيا الى منهجك فهذا موضوع يحتاج الى عمل شاق وطويل للإجابة عليه .

فلنحاول وضع حد للارتكاك الناشئ بين رودنسون المستشرق رودنسون عالم الاجتماع .

● أنا اعتبر نفسى غير قابل للتصنيف . وقد وجه الى هذا السؤال من قبل ، فغيرك من العرب ، وزملاي فى العمل ، وجوهه الى في الماضي . أنا اعتبر نفسى رجلا لديه حبة الاطلاع من جهة ، وقد امتلك عددا من التقنيات الخاصة التي تشحذنا الممارسين (بالرغم من نقد ماركس نفسه ، وكثير من علماء الماركسية لمفهوم علم الاجتماع بمعناه الجمعي) والتجارب والدراسات من جهة أخرى . ان لدى فضولاً واسعاً وشديداً لعرفة عدد كبير من الطواهر .

ولاشياع هذه الرغبة قفت بدراسة اللغة العربية ، واللغات السامية الأخرى . وأنا اكتب معيشي من تعليم اللغة الحبشية القديمة في معهد الدراسات العليا للعلوم اللغوية والتاريخية . نعم ، في البداية ، أردت أن أصنف نفسى بين المستشرقين انكلاسيكين . وقد قلت بما يجب أن يقوم به الباحث من أجل الوصول الى هذا الهدف . أي انجاز دراسات تفصيلية بمساعدة المعارف التي حصلتها . فقد تعلمت اللغة العربية من خلال

و ساعديني الأبحاث والحلقات الدراسية والمؤتمرات ، على تحديد مفهوم الايديولوجيا و انماطها أو ما اسميه حركات ايديولوجية . والمقالة الوحيدة من كتابي « الماركسية والعالم الاسلامي » التي يشير اليها فرانسوا زبال ، وعنوانها « الحركات الايديولوجية في ضوء المقارنة بين الايديولوجيتين القومية العربية والماركسية » قصدت منها أن اضع الايديولوجيتين على قدم المساواة ، من اجل تحديد طبيعة حركة ايديولوجية ما ؛ وذلك طبعا ، رغم ما بين الايديولوجيتين من اختلافات . وقد سجلتها .

انت محق اذن فيما تقوله . فأنا ارفض تقسيم العمل في ايجائي . ولا ابحث في القومية العربية الا من وجهة نظر الايديولوجيات وعلاقتها بها . أما فيما يخص رؤيتي للعالم الاسلامي في القرون الوسطى ، من حيث هو عالم متحرك وغني بالصراعات والتناقضات ، فقد حاربت اصحاب النظرية المعاكسة الفائلين سكونيته . وكما قلت فان تاريخ العرب في القرون الوسطى هو تاريخ الثورة الدائمة ، وتاريخ الثورة الدائمة ، وتاريخ الثورة المغمورة بصورة دائمة . ويدو لي اليوم ان الايديولوجيا السائدة حاليا في العالم الاسلامي مهيبة لقبول هذه الرؤية اكثر مما كانت عليه قبل عشرين سنة .

اما في ما يتعلق بدراستي لحركة التحرر الوطني العربي ضمن اطار اوسع هو حركة التحرر الوطني العالمي ، فانا كعامل في ميدان علم الاجتماع اعتبر أنه لفهم ظاهرة ما يجب أن تتوضع في سياق الظواهر المشابهة لها . وبغير ذلك نقع في نفس المنطق الذي وقعت فيه الصهيونية . فالجماعات الواقعية تحت تأثير ايديولوجية ما ، ترفض أن تتوضح مسائلها في اطار أوسع ، وتقاوم ذلك بشدة ؛ وتتسلك بتعريف نفسها . وترفض أن تدخل ضمن أي اطار عام . ان الجماعات الواقعية تحت تأثير ايديولوجية ما ، والمعتبرة لها ، ترفض قبول كونها حالة خاصة في المشكلة العامة .

الحركة الاجتماعية والايديولوجيا

- هذا يقودنا الى مسألة معقدة جدا . وهي العلاقة بين الحركة

وقت كذلك بدراسة مشابهة عن القمر عند العرب والمسلمين . واكتشفت ، اثناء اعدادي لها ، أمورا هامة . فحاولت أن اضعها في اطار عام من المفاهيم الاجتماعية ، وتصوراتها عن العلم ، وعلاقة هذه المفاهيم بعضها ببعضها الآخر . وفيما يتعلق بالطبع ، فقد قلت بعدد من الدراسات عن تأثير المطبخ العربي والأوروبي ، الأمر الذي أتاح لي أن ادرس تأثير الظواهر الثقافية بعضها على بعضها الآخر . واطلاقا من هذه الأمور الصغيرة بدأت المس الأمور الكبيرة .

هل يعني هذا اني ، من وجهة نظر تخصيصية . مستعرب وألسني الخ ...؟ لقد اعتبرت دائما ان الحدود بين الاختصاصات الدراسية أمر مصطنع جدا . وانه لدراسة موضوع ما لا بد أن نطبقه من جميع الجوانب الممكنة ، مستفيدين من جميع الاختصاصات . فالمطبخ مثلا موضوع يتم به الجميع ، كالدراسات الدينية ، والتحليل النفسي ، وعلم النفس العام ، وعلم الاجتماع ، ولدراسته لا بد من تحصيل معارف لغوية ، الخ ... ثم تطبيق كل هذه العلوم مجتمعة . وبعد ، تسألني فيما اذا كنت مستشرقا ، أم مختصا بعلم الاجتماع . لست هذا ولا ذاك . وأرفض كل الاختصاصات . ولدي من الوعي ما يكفي حتى ادرك ما ينطوي عليه مفهوم التخصص من افكار . ثم ، كم يصعب عليَّ أن أضفي حياتي كلها بحثا وراء السلوجوقيين على سبيل المثال . رويدا رويدا اخذت اتناول المسائل العامة . وقد ساعديني الماركسية ، التي كانت تتحلى شعورا ما بالبراءة والجرأة ، على تكوين نظرة شاملة ، وتناول مواضيع عامة . وكان في ذلك شيء من السذاجة ، ورجني في الماضي بمساجلات كلامية للدفاع عن العقيدة .

وبالفعل ، فإن ادراكي لتجهيزي العام نحو دراسة مفهوم الايديولوجيا والحركات الايديولوجية كان يزداد بازديادوعيي للمشكلات النظرية والسياسية . وهو واحد من المحاور الأساسية للأيجائي . فقد شعلني ما كنتلاحظه بين الايديولوجيات الدينية والماركسية من تشابه .

التيارات جماعات تعمل ضمن تيارات ايديولوجية ماركسيّة سياسية.

- يوجد تيار ماركسي في فرنسا مثلاً يناضل ضد الایديولوجيا بكل تiarاتها واعتراضها.

● ان نظاماً فكريّاً ما في حال قبول واقعيته هو نظام من الأفكار. أنا لا أقول ان الایديولوجيا هي بالقوة مزيفة. وما اسميه ایدیولوچیا هو تيار ما تستخدمه حركة اجتماعية ما.

- أي انك ما زلت تأخذ بالمعنى الاجماعي للكلمة، الى جانب المعنى السلي. وهذا، كما يرى هؤلاء الماركسيين الخارجون عن الایديولوجيا، من شأنه أن يؤدي الى الالتباس والتناقض اثناء تشخيص المجتمع.

● نعم، المعنى الاجماعي والسلبي معاً. لكنني لا أظن أيضاً ان احداً من يقلّت من الواقع تحت تأثير خداع، وتشويه للوعي من نوع ما، ما دامت الأفكار موضوعة موضوع التطبيق العلمي. والامكانية الوحيدة المتوفرة لنا هي أن نقلص هذا الدخاع ما أمكننا ذلك. ولا أعرف فيما إذا كان الماركسيون الخارجون عن الایديولوجيا ينحجون في ذلك أم لا. وأننا أحياول بدوري أيضاً. واعتقد ان الأمر في الحقيقة، وفي النهاية، مع الایديولوجيا، وبدون ایدیولوچیا سيان. لأنّي اعتبر كل ممارسة سياسية تؤدي الى التواء الفكر، والغرافه بالنسبة لرؤيه الواقع. وهو التوء، وإن كان يضيء بعض النقاط، فإنه يدخل الكسل الى الفكر القدي من ناحية أخرى.

- المور الرئيسي للرأى الماركسي «الماركسي والعالم الإسلامي» هو مهات وأهداف حركة التحرر الوطني، أي بناء الدولة الوطنية الديمقراطية المستقلة القادرة على انجاز مهات التحرر الوطني الاجتماعي. وعلى هذه المهات توسيس كل ما يجري من تحولات في الایديولوجيات.

الا تعتقد بالتأني ان القومية والاشتراكية تتجان من الداخل، ولا تستوران من الخارج. كنت تقول في السينات ان الماركسيّة هي التي تفسر القومية العربية. ليس محرك التغيير، الكامن في هذه المهات والأهداف الاجتماعية الموضوعية والواقعة، هو الذي يفسر ما يجري من تحولات ایدیولوچیا؟

● أنا أميل الى القول بالأمرین معاً. كما قلت في مقالاتي عن

الاجماعية لجماعة ثورية ما، والايديولوجيا. الا تعتقد انه بالامكان التعرف على مواضع حركة التحرر الوطني العربي، مثل المورقة القومية، والأصالة الفكرية، والخصوصية، خارج ميدان الفلسفة والايديولوجيا. الا يمكن التمييز بين الاثنين؟ وهل تربط كل حركة تحرر وطني مثلاً بايدیولوچیا ما؟

● نعم ، وبالضرورة. لأن الحركة الاجتماعية تقوم بفضل منظومة من الأفكار، صيغت في ظروف محددة ، وهي تترجم مطالب الجماعة ، وعدم رضاها ، وأمامها ، وتعبر عن ردود أفعالها ضد وضع جائز . وهي بنية من الأفكار معدة بصورة مكثة ومحددة ، ونظام معين من الممارسات والرموز ، الخ ...

- كيف يكون ذلك؟ الا توجد ماركسية بدون ایدیولوچیا وبدون فلسفة؟

● لا اعتقاد.

- في الماركسيّة يحاول أن يقيم البرهان على ذلك. إذ يقول ان الماركسيّة هي خروج عن الایديولوجيا. وكما كان يقول ماركس بالألمانية **Ausgang**

● هذه تزعة ایدیولوچیة ، والقائلون بها ایدیولوچيون.

- لنفترض موقتاً ان خروج الماركسيّة (وكذلك رودنوسون) عن الایديولوجيا ممكن. فلماذا لا يكون ممكناً ايضاً بالنسبة لحركة التحرر الوطني العربي؟

● ان كلانا يبح في اتجاه مخالف للآخر. انت تأخذ هنا بتعريف ماركسي للایديولوجيا . والايديولوجيا هي حسب هذا التعريف وهي مغلوط للعلم. وتقوم بوظيفة تريف الواقع ، وتقلب الواقع الحقيقي وهي تعكسه . والماركسيّة يفهمون هذا التيار هي العلم. ليست الفلسفة ، وليس الایديولوجيا . وتنصب في عملها على الحقيقة الواقعية في العلاقات الاجتماعية. أنا لا اعتقاد بكل ما سبق . وإذا كنت احاول أن اخرج من الایديولوجيا - على قدر الامكان - فاني لا اسمي هذا ماركسيّة ، لكن سوسيولوجيا . واعتبر الماركسيين من جميع

- تحمل العلاقة بين الخاص والعام مركزاً أساسياً في الدراسات السوسيولوجية والإيديولوجية. لا يمكن أن نقول، في نهاية الأمر، إن الخاص ينبع العام ثم يعيد انتاجه من جديد. فإذا درست الاستراتيجية والذكيل اللذين تبعها حركة التحرر الوطني العربي، بكل تنوعاتها، والانتاج الثقافي الذي يحيطها ويعايشها، ستجد أن الحركة تبع منطلقاً عاماً شاملاً، لكنها تغير عن نفسها تعبيراً خاصاً. هذا المطلق العام هو انتصارات الخصوصية للصورة، وإعادة انتاجها من جديد محملة باضافة قومية وأخرى عالمية.

- لا شك أن الطريقة التي يتحقق بها التضاد السياسي لحركة التحرر الوطني العربي – كما في الحركات الأخرى – والطريقة التي تتفاعل بها الحركة الإيديولوجية ، والأسلوب الذي يجري بمقتضاه إعداد الأشكال الإيديولوجية ، لاسياً إذا أخذنا الطريقة التي يجري بمقتضاهما التضاد السياسي ، لوجدنا ان كل ذلك يصدر، بطبيعة الحال، عن التاريخ الثقافي لمجتمع يتصف بالخصوصية . وهذا ينطبق على جميع المجتمعات. فقد بين انطونيو غرامشي بالنسبة لايطاليا اختلافها عن غيرها. والتقاليد الثقافية التاريخية الفرنسية تختلف كذلك عن الايطالية ، الخ. وبصورة عامة ، فإن عللاً واحدة تؤدي إلى تنازع مختلفة بحسب المجتمعات. وأؤكد أنها تطبع في العالم العربي تنازع أكثر اختلافاً منها في فرنسا أو ايطاليا أو غيرها. أما دراسة التراث الثقافي العربي ، وغيره ، فان على الباحث أن يلم بكل مكوناته ، وهو ما اعتبره أمراً صعباً للغاية. انه يختلف عن المفهوم الشائع والقائل بأن التراث الثقافي هو كل ما تنقله الثقافة الأدبية . وهذا اختصار كبير للمسألة. النتيجة ان مكونات التراث تتضمن ايضاً كل دوافع السلوك ، كالسلوك اليومي مثلاً. وهذا ما أتحدث عنه في كتابي «العرب» ، والذي سيصدر في نهاية هذا العام.

وقد شغلتني هذه المسألة كثيراً. وأنا أحاول أن أجرب عليها اليوم في كتابي المذكور. فالجانب الإيديولوجيات العالمية الكبرى، يوجد نوع آخر من الإيديولوجيات لم يسبق لنا أن ادركناها بصورة كافية قبل اليوم. فلنترك جانباً القومية العربية ، فهي مصطلح عام جداً ، ولنأخذ فروعها ، كالناصرية مثلاً.

مادة «الإيديولوجية القومية» في الموسوعة العالمية (Encyclopaedia Universalis) وفي الكتاب الذي أعده حالياً عن «العرب». فالعلاقة بين الأمرين معقدة جداً.

ومن الصواب أيضاً أن أقول إن القاعدة التي تحرك القومية العربية هي الوضع غير المرضي الذي تعشه الجماهير العربية ونخبتها من نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، هذا الوضع الذي ينظر له المنظرون جيلاً بعد جيل.

وبالأضافة إلى الإيديولوجيات العالمية المعروفة ، ثمة نمط آخر منها ، أطلق عليه اسم الإيديولوجيات الاتنية – القومية - ethnicos - Nationaus وبخلاف كثرين غيري اعتبر ظواهرها شبه دائمة . بعض هذه الظواهر كان موجوداً في حال من الكون منذ القرون الوسطى ، وأحياناً منذ الجاهلية ، لم تتطور بشكل ملحوظ وفعال في المرحلة المعاصرة. ان تحديد هذا النمط من الإيديولوجيات ، هو طريقة للدراسة أوضاع وظروف الجماعات الاتنية – القومية.

ومن الصواب أيضاً أن نقول : إن الأفكار لا تصدر جميعها من الحالة الموضوعية. فالشكل الذي تتخذه هذه الإيديولوجية الوطنية في المرحلة المعاصرة ، متاثر بالأعماط والأشكال التي تكونت في أوروبا ، والسابقة عليها تاريخياً. والخلاصة هي أن تأثير الإيديولوجيات الغربية المعاصرة بالإيديولوجية الوطنية يكاد يمْحَى – إذا صح التعبير – أمام الوضع غير المرضي واليائس ، الذي تعشه الجماهير. هذا الوضع الذي اعتبره بمثابة الحركه النهائي. وأنا أحاول أن أجمع بين القضيتين بطريقة تركيبة. ذلك أن إنشاء التعارض بينها ، هو إما نعط مستورد وإنما ظهور تلقائي ، هو تعارض لا طائل منه. لأن الظهور التقليدي موجود بالقوة ، هم يجري تبني النمط القومي الأوروبي اعتباراً من مرحلة معينة وبصورة متأخرة ، ما دام يستحب في القرن العشرين بصورة أفضل لل الحاجات الإيديولوجية للجماهير.

ويجب أن نقول إن بعض الأفكار الماركسية قد انتشر بصورة كبيرة جداً. كمفهوم الامبرالية مثلاً. هذا المفهوم الذي أخذته حركة التحرر العربي كغيرها من الحركات، لأنه ينسجم مع مهمتها.

- منذ عام (١٩٧٠) وقع انقلاب رجعي على الناصرية في مصر. وبهذا الصدد يمكن أن نميز بين أمرتين: فقد حاولت القوى المعادية أن تصفي الناصرية من حيث هي دولة ومجتمع سياسي. أما الناصرية لما زالت قادرة على التعبئة الجماهيرية لأغراض انجاز مهام التحرر الوطني والديمقراطى.

وقد صدر كتابك «الماركسي والعالم الإسلامي» بالفرنسية عام (١٩٧٢)، ومنذ ذلك التاريخ أيضاً حدثت تحولات هامة في حركة التحرر والتقدم العربي وال العالمي. لكن المتبعين لما تكتب وتقول يلاحظون أن آراءك في السنوات الأخيرة ظلت مجهولة، إن لم أقل مكتوبة.

● أفضل أن تكون حذراً بهذا الخصوص. فكل ما يجري منذ وفاة عبد الناصر، وقبل هذا التاريخ بقليل، ليس في مصلحة حركة التحرر العربي. واني أفضل حالياً الامتناع عن نشر آرائي. فقد وجهت إليّ فيما سبق تهمة الانتهاء إلى الصهيونية. واني أريد أن أحمي ملاحظاتي حول الواقع الراهن من أمثل هذه التهم.

- ربما كان علينا أن نفهم هذه الآراء في إطار السياسة السعودية، ونفوذها وتأثيرها في السياسة العربية العامة.

● هذا صحيح

التراجع والانعكاس السعودي

- من الواضح أن ما يجري حالياً في الوطن العربي من تراجع هو انعكاس وامتداد لتعطل السياسة السعودية. وهكذا نجد انفسنا أذن في مواجهة جانب آخر من المسألة. لقد كان عبد الناصر، كما يبدو لكثيرين من التقىيين والوطنيين العرب، مشروع حضاري للتنمية والتقدم، بينما تمثل السياسة السعودية اليوم مشروعًا استهلاكيًا يهدى ويستنفذ الطاقة العربية.

● نعم هذا أكيد. وأنا منذ فترة أفكر بهذا الموضوع، وعلى

من المؤكد أن عبد الناصر لم يكن منظراً، ولم تكن لديه فكرة مسبقة و شاملة. لكن من خلال العمل الذي كانت توجهه بعض أفكار عامة ، ومن خلال ردود الأفعال التي كان يستثيرها عمله ، حدث نوع من التنظير العملي وقد صدر في العمل واثناءه ، وفي الإطار العام للقومية العربية. أضف إلى ذلك ،

ان الطريقة التي يتحقق فيها العمل والتنظير في الواقع اليومي تشغل جزءاً آخر من الدراسة. لذلك لا بد من الاستعانة بآيديولوجيات الحياة اليومية. وهي آيديولوجيات تضرب بجذورها في الأعماق الدفينة . فالمناضل العربي لا يتصرف كغيره من المناضلين في العالم . وللأخذ مفهوم الشرف مثلاً. وهو من المفاهيم الآيديولوجية ان شئت . ولنلاحظ ان هذا المفهوم ليس له شيئاً في الآيديولوجيات الأخرى ، ولا نجد له داخلاً في تصنيفات الآيديولوجية الماركسية أو الفاشية أو الليبرالية . وهو ضارب في القدم ، ويعود الى الجاهلية ، يمارس ثأره في الحياة اليومية ، وخاصة في حياة المناضل السياسي .

● قال البعض ان الماركسية أثرت على عبد الناصر . وقبل أيّضاً انه فهم الماركسية على طريقته.

● ولم لا يكون الأمر معاً؟

— لأن الهوية الماركسية أنتجتها آيديولوجية المؤسسات الاجتماعية المختلفة ، وتأثرت بضامن التلولوجية وطنية ودينية . وهي تحرير وتعميم وتزيف تقوم به جماعة ما تبرير موقفها ، والاحتفاظ على قيادتها . والصحيح هو أن الماركسية ليست لها هوية . فهي ليست مسبقة البصع ، وجاهزة في بطرن الكتب والمتسارع . بينما الهوية القومية ، والخصوصيات والأصلية ، متجلدة ومشخصة في المجتمع والواقع . وما الواقع إلا مهام وأهداف التحرر الوطني العربي . وهو الذي يقوم بتطوير مساره الفكري . فيفتح ويفسر وبعدل الآيديولوجيات ، وغالباً ما يقتضي على بعضها

● إذا أخذتنا الأمور من حيث نتائجها النهائية ، فانا نجد هنا تدین للقومية العربية أكثر مما تدین للماركسية . لكنني أرى أيضاً ان الأفكار الماركسية قد أثرت في المرحلة المعاصرة على الجميع . لقد قلت مرة للرئيس معمر القذافي : «انت متاثر بالماركسية». فضحك وقال لي : «كان ماركس اذن مسلماً».

قد يدو للوهلة الأولى أن المثقفين الغربيين يتفقون مع باور عند الحديث عن الوحدة العربية، ومع كاوتسكي عند الحديث عن الموسطية والأهمية والأنسانية. وأسلوبان على ما يبها من خلاف يتفقان في اهتمامهما والعن نحت قبة أيدلوجية أوروبية. فلما تعدد موقع الوحدة العربية؟

● في رأيي ان الوحدة العربية هي قبل كل شيء آخر ايدلوجية. وفي داخل هذه الأيدلوجية اقسام. هناك اتجاه يرمي الى الوحدة، وآخر نحو التنوع. ايها يجب أن يكون؟ الأمران سبان عندي. أما ما قصدته جاك بيرك، ولا أعتقد أنه يؤمن بالوحدة العربية أكثر مني، فهو وجود هذين الاتجاهين المختلفين. أيها يتغلب؟ لا نعرف شيئاً. وال الصحيح هو أن العالم العربي موحد ومتعدد بنفس الوقت. هذا كل ما أعرفه حالياً. قد يستمر النوع مع اتجاه متزايد لتأثير وسائل الاتصال الجاهيري وانتشار التعليم والسينما والتلفزيون.

- الم قيل ان تغلب واحد من الاتجاهين على الآخر منزوك للعوامل الملموسة؟

● وهذا ما لا يمكن اعتباره جواباً. ان عوامل النوع كعوامل الوحدة تجد تجسيداتها في الواقع بطريقة أو بأخرى.

- الم قيل ان التنمية هي واحدة من المهام الأساسية لحركة التحرر الوطني، فإذا لا تكون عاملاً للوحدة العربية؟

● نعم، ان لها دوراً فعالاً في اتجاه الوحدة. هذا أكيد. لكن، هناك أشياء أخرى تؤثر في اتجاه التنوع والمتغير. فمقدار ما تصبح فيه الدولة الحديثة أكثر صلابة ومتانة وتتوصل إلى ايجاد شبكاتها، فإنها تستطيع تعزيز المشاعر الجاهيرية في اتجاه أقليسي.

- الم قيل، بمناسبة الحديث عن ظهور وظيفيات كبيرة في أفريقيا والعالم الثالث، دعوني ألهفه غالباً، لقد تم تحطيم الخندق بين الأفارقة العربية في روما وباريس ولندن، وأضيف الآن في كامب دافيد.

الآن تعتقد أن خطأ بعض الغربيين وبعض العرب في بحثهم للوحدة العربية يرجع إلى عدم تغييرهم لما بين الدول الحديثة والإقليمية من

هذا النحو أيضاً. نعم، ثمة مشروع سعودي مغري يحذب إليه الطبقات المسيطرة في العالم العربي. لكنه يعني من ناحية أخرى الاستفادة من واردات النفط. ويرمي إلى تكوين كتلة عربية. ولن تكون هذه الكتلة بالضرورة مجرد فلك يدور في سياسة دولة عظمى. إنها يمكن أن تمثل قوة ذاتية ما أمامها. لكنها، وفي حال بقائهما مفترضة إلى مشروع حقيقي للتنمية، واتجاهها اتجاهها مغرياً في الرجعية، فإنها تؤدي إلى ثبيت موقع الطبقات المسيطرة.

وبصورة خاصة، يحتم هذا المشروع، الارتباط بالولايات المتحدة الأمريكية، واتباع سياسة سلبية تجاه إسرائيل. أما اليسار العربي، فما هي استراتيجية؟ وهل تستجيب استراتيجية مناسبة لطلعات وأوضاع الجاهير، وللواقع العربي والدولي؟ ومن سيتغلب؟ العين أو اليسار؟ إن الجواب يتجاوز بكثير تقديرات رجل واحد.

- ان الأيدلوجية الحالية تصدر عن آبار النفط. وغير غير النايب النفط

● هذه هي الأيدلوجية من حيث هي قوة قدارة بذاتها على التأثير في الواقع، حسب القول الشهير لماركس. لكن رغم ما تقدم، فإن السياسة السعودية لا تستطيع كل شيء. لأن قوة الأيدلوجية العربية تقاوم ذلك وتعارضه. أقصد القوة الذاتية للقومية العربية. ومن تيارها غالب في المرحلة الماضية. إلى التيار المعادي للأميرالية.

- في هذه الظروف القومية العالمية العصيرة، مجده في الآونة الأخيرة حديث المثقفين الغربيين، في فرنسا خاصة، عن الوحدة العربية. وبخواص بعضهم مثل الاستاذ جاك بيرك، أن يميز بين الوحدة والوحدةية (Unitarisme)، بمعنى أن الوحدة تريد أن تصل إلى التوحيد مع الحفاظ على التنوع، بينما تعمل الثانية على تذويبها وصهرها في الواحد. ولنقول إن هذا الخلاف يشهي بوجه من الوجهة الخلاف الذي كان يدور بين باور وكاوتسكي حول العلاقة بين القومية والأهمية. فالأخير كان يرى أن المجتمع الاشتراكي يفتح القوميات ويجمع بينها جمعاً متساوياً وديمقراطياً، بعد زوال الدول البورجوازية التي كانت تضطهد أحداً لصالح الأخرى. أما كاوتسكي فكان يرى أن القومية تزول بزوال الدولة البورجوازية، وتفقد مبررات وجودها.

حلاً منذ أمد بعيد، سواء بالحرب أم بالسلم. والدلالة التي يحملها وجود كل هذه الدول، وكل هذه القوى داخل الدولة، هي أن أي قرار يتخذه طرف من الأطراف، سرعان ما يعيده النظر فيه الطرف الآخر. ثمة كيان ما، موجود دائماً، وموظف من أجل القيام بالزيادات والاتهامات. والقوى كثيرة ومتعددة. وتغدر التوحيد الاستراتيجي مشكلة واضح المعالم، وعلمه كبيرة وراء تغدر العرب عن الخروج من وضعهم الصعب. وهي تؤدي بهم غالباً إلى العجز.

وعلي أن أضيف بعد كل ما تقدم: إن وزن التقاليد التاريخية والترااث الثقافي، يقوم بدور ايجابي وفعال. لكن الايديولوجية التقليدية تؤثر بصورة سلبية على محصلة الأولى. وأنا متأكد انه يمكن فصلها عنها.

- يدعو حالياً بعض التقديرين الغربيين لأفكار مثل الموصولة، والتعاون العربي والأوروبي، لادخال تعديل في موازين السياسة الدولية. من هم حلفاء حركة التحرر الوطني العربي؟ ومع من تعاون؟ أوروبا أم القوى الغربية في العام؟

● ما الذي تعنيه العلاقة مع العالم الأوروبي؟ السعوديون ينشئون الكتلة العربية، والآخرون يقيمون الكتلة الأوروبية؛ ثم يوحدون بين كليتين! هذا لا يهمني. فأنا لست مع العرب من حيث هم عرب، ولا مع الأوروبيين من حيث هم أوروبيون. ثم لماذا أساند هاتين الكليتين وأنا لا أستطيع أن أتبأ بما يمكن أن يقول إليه مصير الشعوب فيها لو اجتمعنا؟

أما ما تقوله عن العلاقة مع القوى الثورية، فمن هي؟ أنا أطالب الجميع بتوضيح ذلك. ولدي شكوك حول بعضها. لكن اذا فرض علىي أن أختار، فاني أفضل مع ذلك القوى الثورية.

ان على حركة التحرر الوطني أن تكون حذرة، خصوصاً حذرة، حذرة من الجميع، وحذرة من كل شيء.

انطبق، ولا بين الدول والجماهير من عداء. فالدول اشتتها الامبرالية. أما الجماهير فهي ضد الدولة، ومع الوحدة خارج هذه الدولة.

● هذه الأفكار ليست صحيحة بصورة مطلقة. وهي من انتاج حركة القومية العربية. وفي رأيي ان المشاعر الاقليمية موجودة أيضاً. وتجدها حية عند الجماهير ايضاً. طبعاً هي أشد قوة، وأكثر تماسكاً وصلابة في شبكات الدولة. وصحيف أيضاً ان القومية العربية موجودة دائماً في حال من الكون. لكنها قد لا تتطور. هذا ممكن وغير ممكن معاً. فالخصوصية الاقليمية لم توجدها الامبرالية. وهذه ليست علة كل شيء.

ان الخصوصيات الاجتماعية قديمة و بتاريخها بعضها قديم، كما نرى في مصر مثلاً، وبعضها حديث انتج في برلين. وفي قولنا، لكنها انتجت في برلين، فانا نستطيع القول لكنها مع ذلك بدأت تعمل عملها. انظر الى افريقيا السوداء. لا يوجد حدود مزيفة ومصطنة أكثر من تلك التي تراها بين دولها. ومع ذلك نلاحظ أن ثمة مشاعر تشبه الوطنية أخذت تظهر. كالوطنية التأزانية والKitchenية والتيجيرية الخ.... الرب وحده يعلم فيما اذا كان لم يبلغ بعد أوج الزيف والتصنع.

معتقدات تقدم حركة التحرر العربي

- منذ اتساع الفوڈ الاستعماري في الوطن العربي عن الاسترالق، عنابة العرب انفسهم، بدراسة أسباب الاخطاء. ويبدو في ان المكانة التي تبوأها دراساتك بين هذه الدراسات، تعود الى ثبات للدور العامل الايديولوجي، فلت ترجع الاخطاء والتأخير للعوامل الاجتماعية والسياسية. فما هي العوامل التي تحول اليوم دون تقدم حركة التحرر الوطني العربي؟ لن أسألك عن دور الاقليمية والقسم، فاني أفتر سبقنا انك لا تملك جواباً بهذا الشأن. فلنبحث اذن في المعتقدات الاجتماعية والسياسية.

● ان الصراع يفرض على الأقطار العربية أن تتدخل في نفس مشاركته. هذه واقعة موضوعية لا تستطيع الهرب منها. لكنها لم تستطع حتى الآن أن تبتغي للتحديات باستراتيجية موحدة، لا من أجل السلام، ولا من أجل الحرب. لو كانت لدولة العربية الموحدة موجودة، حتى لو اقتصرت على دولة الشرق الأوسط لوجدت المشكلة العربية الاسرائيلية نفسها